الصباح الإسلامية
AL-SABAH
No. 4872 | الجمعة | 2 ذي القعدة 1445 هـ | 10 مايو 2024 م | السنة السابعة عشرة
www.alsabahpress.com Alsabah Media

تصنيف الناس بين الظن واليقين

لا يكون التقرُّب إلى الله –سبحانه وتعالى– بالأمور العمليّة فقط، بل قد يكون بأمور أخرى قلبيّة أو عقليّة، ومن تلك الأمور إحسان الظنّ بالله، والاعتقاد بأنّ الله سُبحانه وتعالى أعدّ لعباده من الخير ما لا يسعُهم تصوُّره إذا ما التزموا بأوامره وانتهوا عن نواهيه، وبناءً على ذلك فإنّ النّاس يتفاوتون في القُرب من الله والبعد عنه كلٌ حسب إحسان ظنّه بالله إو إساءة ظنّه به.

وقد ثبت في الصّحيح أنّه كلّما ازداد حُسن ظنّ العبد بالله ازدادَ قُرباً منه، من ذلك ما جاء في حديث المُصطفى صلّى الله عليه وسلّم؛ حيث قال: (خَرَجْتُ عائدًا ليزيدَ بنِ الأسود، فلقيتُ واثلةَ بنَ الأسقعِ وهو يُريدُ عيادَتَه، فدخَلْنا عليهَ، فلمَّا رأى واثلةَ بسَطَ يدَه وجعَلَ يُشيرُ إليه، فأقبَلَ واثلةُ حتّى جلسَ، فأخَذ يزيدُ بكفَّيْ واثلةَ فجعَلَهما على وجهِه، فقال له واثلةُ: كيف ظنُّك بالله؟ قال: ظنّي بالله –واللهِ– حسَنٌ، قال: فأبشِرْ، فإنّي سمِعْتُ رسولَ الله –صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم– يقولُ: قال اللَّهُ جلَّ وعلا: أنا عندَ ظَنِّ عبدي بي إنْ ظنَّ خيرًا، وإنْ ظنَّ شرًّا).

معنى الظنّ

الظنّ لُغةً: هو الاعتقاد الرّاجح مع احتمال النّقيض، وتُستخدَم لفظة الظنّ في الإشارة إلى اليقين والشك، ويُقصَد بحُسن الظنّ بالله اصطلاحاً: أن يعلم العبد أنّ الذي يبتليه ويختبره بالمرض والأوجاع هو الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله –عزّ وجل– لم يبتلِه ليُهلكه أو يُعذّبه أو يضرّه، وإنّما ابتلاه مثل غيره من الخَلق؛ ليمتحنهم، ويعلم من يصبر منهم ممّن يجزع، ويرى تطبيقهم العمليّ للإيمان بالله وإحسان التوجّه إليه في وقت الشدّة كما في وقت الرّخاء، وليسمعَ دُعاءَهم إذا أصابهم البلاءُ، ويرى انكسارهم له لا لسواه؛ حتّى يرفع ما بهم من أذىً، وقد بيّن الله –سبحانه وتعالى– أنّه لا يُمكن أن يتجاوز ذلك الاختبار إلا من صلح عمله، وصدق إيمانه.

معنى اليقين

اليقين: هو العلم بأنّ حُكم الله خير الأحكام، وأفضلُها، وأتمُّها، وأعدلُها، وأنّ الواجب على كلّ مكلّف الانقيادُ له، مع الرّضا والتّسليم التامّ بكلّ الحوادث التي تَمرّ بالمسلم، وذلك تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ). واليقين أيضا: التّصديق الجازم الذي تستقرّ معه النّفس وتطمئنّ.

تصنيف النّاس بين الظنّ واليقين

يمكن التّمييز بين الظنّ واليقين عند النّاس بعدّة أمور؛ فالعبد المؤمن يكون مُقبلاً على الآخرة بالعمل الصّالح؛ لعلمه اليقين أنّ الله سيجزيه لقاءَ عمله، بينما يسعى الذي يظنّ بالله ظنّ السّوء إلى إدراك الدّنيا بكلّ ما أوتي من طاقة؛ لأنّه يظنّ أن الله لن يحاسبَه على ما قدّم في الدّنيا من الأعمال فيُهمل الآخرة، وممّا يوضّح الفرق بين النّاس من حيث الظنّ أو اليقين ما يأتي:

– يسعى العبد الموقن بالله إلى فهم معاني أسماء الله الحُسنى، والإلمام بكلّ ما يحيط بها من معانٍ جليلة تزيده يقيناً بالله، بينما يُهمل الذي يظنّ بالله ظنّ السّوء تلك الأسماء والصّفات، فيبقى بعيداً عن الله، مُدبراً عن الآخرة، مُقبلاً على الدّنيا.

– يجتنب العبد الموقن بالله المُنكرات والآثام والمعاصي جميعها، وإذا اقترفَ ذنباً أو قصّر بحق الله فإنّه يلجأ إلى التّوبة عن تلك الذّنوب والخطايا، بينما يوغل العبد الذي يظنّ بالله سوءاً في المعاصي والآثام، ولا تردعه ذنوبه ومعاصيه عن ذلك، وكلّما أذنبَ ظنّ أنّ الله لن يغفرَ له، فيزيد في العصيان، ويوغل في المعاصي أكثر وأكثر.

– يلجأ العبد الموقن بربّه إلى الإقبال على الله بالعمل الصّالح، خصوصاً إذا شعر بأنّه ابتعد عن الله، بينما يبتعد الذي يظنّ بالله ظنّ السّوء عن الصّالح من العمل؛ لظنّه أنّ الله لن يقبل عبادته وطاعته مهما قدّم وعمل.

– يُدرك العبد الموقن بالله أنّ خزائن السّماوات والأرض بيد الله لا بيد أحد سَواه، وأنّه هو الوحيد المتصرّف فيها بالخَلق، والإيجاد، والإعطاء.

– يصبر العبد الموقن بالله على ما يُصيبه من البلايا والمحن، ويحتسب الأجر عند الله سبحانه وتعالى؛ حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: (عجباً لأمر المؤمن! إنّ أمرَه كله خيرٌ، وليس ذاك لأحد إلّا للمؤمن؛ إنْ أصابَتْه سرّاءُ شكرَ، فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر، فكان خيراً له)، بينما يجزع العبد الذي يظنّ بالله ظنّ السّوء؛ لاعتقاده أنّ ما يُصيبه هو عقوبة من الله على تقصيره.

وأظهرت النّصوص القرآنيّة منزلة الظنّ واليقين بالله في الكثير من المواضع، ممّا يدلّ على مكانة إحسان الظنّ بالله وأهميّته، وفضل اليقين عند الله سبحانه وتعالى، كما أظهرت تلك النّصوص أهميّة توجُّه العباد إلى الله تعالى، وأنّهم يتفاضلون في درجات ظنّهم ويقينهم بالله، وذلك ما يزيد قُربَهم من الله أو بعدهم عنه، وبيان بعض تلك النّصوص فيما يأتي:

الظنّ في القرآن الكريم

جاء ذكر تفاضُل النّاس بين الظنّ واليقين في القرآن الكريم في العديد من المواضع، منها على سبيل المثال ما يأتي:

– قول الله سبحانه وتعالى: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ×إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ×فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ×فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ×قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ×كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)، وورد معنى الظنّ هنا مرادفاً للاعتقاد الجازم لا بمعنى الشكّ والتوهُّم؛ فمعنى قول الله سبحانه وتعالى: (إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ)؛ أي أنّ المؤمن يحمل كتابَه بيمينه، ثمّ يقول: لقد اعتقدتُ يقيناً أن الله سيُحاسبني على ما قدّمت وعملت، فلجأتُ إلى حُسن الظنّ به مع العمل الصّالح، فنجى العبد المؤمن من عذاب الله، ووصل إلى رضوانه بحُسن يقينه به وبُعده عن الظنّ السيّئ به، وإعداده لذلك اليوم بحُسن العمل.

– قول الله عزّ وجلّ: (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ)، جاء الظنّ هنا بمعنى الشكّ والتوهُّم النّاتج عن ضعف الإيمان؛ وقد أشارت الآية إلى عقوبة من يُسيء الظنّ بالله سبحانه وتعالى، حيث يتعرّض لعقوبة الله وسخطه؛ لظنّه بالله غير الحقّ.

– قال تعالى: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)، معنى الظنّ هنا هو الاعتقاد الجازم الذي لا شكّ فيه؛ فالله –سبحانه وتعالى– يصف عبادَه الذين يُحسنون الظنّ به بصفات تُميّزهم عن غيرهم من النّاس؛ فهم الأقدر على الصّبر على الشّدائد، والخشوع في الصّلاة، فيؤدّونها بسكينة وطمأنينة، أمّا قوله تعالى: (الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)، يعني أنّهم يعتقدون بحقيقة حصول الشريف، أو في بداية مجالس الذّكر.

– يُسَنّ للمسلم أن يستفتح بها كثيراً من المباحات، منها ما يأتي:

1 – الأكل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (يا غلامُ، سمِّ اللهَ، وكُل بيمينِك، وكُلْ ممّا يليكَ).

2 – الجماع، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لو أنّ أحدَكم إذا أراد أن يأتيَ أهلَه، فقال: باسمِ اللهِ: اللهمّ جنِّبْنا الشيطانَ، وجَنِّبِ الشَيطانَ ما رزقتنا، فإنّهُ إن يُقدّرُ بينَهما ولدٌ في ذلك، لم يضُرّه شيطانٌ أبدا).

شُرعت في كلّ أحوال الإنسان من قيام، وقعود، وأكل، وقراءة قرآن، وغيره، وذلك ليظل الإنسان ذاكراً لله تعالى، طالباً للإخلاص له في كل أعماله، وليطلب بها التبرّك والتيمّن؛ ففيها للإنسان البركة والحفظ والرعاية.

أوجُه قراءة البسملة في القرآن الكريم

جعل العلماء لقراءة البسملة في القرآن الكريم خمسة أوجه؛ أجازوا قراءة أربعة منها ومنعوا واحدة، وفيما يأتي بيان الأوجه الجائزة لقراءتها:

– الوجه الأول: الفصل بينها وبين آخر السورة التي تسبقها، وبينها وبين أول السورة التي تليها.

– الوجه الثاني: الجمع بينها وبين آخر السورة التي تسبقها، وبينها وبين أول السورة التي تليها.

– الوجه الثالث: فصلها عن آخر السورة التي تسبقها، وجمعها بأول السورة التي تليها.

– الوجه الرابع: ترك قراءتها بالكليّة.

ذلك اعتقاداً جازماً لا شكّ فيه، وقد أوصلَهم ذلك الاعتقاد إلى ما وصلوا إليه من الخشوع في الصّلاة، وإحسان العبادة.

– قول الله عزّ وجلّ: (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)، جاء معنى الظنّ هنا بمعنى الشك والتوهُّم؛ فقد نَهَى الله سبحانه وتعالى النّاس جميعاً في هذه الآية عن أن يظنّوا به غير الحق، وبيّن أنّ ظنّ غير الحقّ بالله صفة اتّصف بها أهل الجاهليّة، وأنّ من يكون ذلك حاله فإنّه يتصف بصفات أهل الجاهليّة.

اليقين في القرآن الكريم

ذُكر اليقين في كتاب الله –سبحانه وتعالى– في العديد من المواضع، وأشارت تلك المواضع في غالبيّتها إلى أفضليّة اليقين وأهله، ومكانته عند الله سبحانه وتعالى، وكيف يكون أجر من يتّصف بتلك الصّفة ويتحلّى بها يوم القيامة، وممّا جاء في اليقين في كتاب الله ما يلي:

– قال تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ – وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ – أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، يتّصف أهل اليقين في هذه الآية بمجموعة من الصّفات الحميدة التي تُميّزهم عن غيرهم من النّاس، ويتقرّبون بها من الله سبحانه وتعالى؛ فهُم يؤمنون بكل ما جاء به الوحي من الأمور الغيبيّة إيمانا بصدق ما جاء به المُصطفى صلّى الله عليه وسلم.

– قال الله سبحانه وتعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ×وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ×وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ×فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)،[١٩] فأهل اليقين يتدبّرون في آيات الله التي وضعها في خلقه المتمثّل بالطّبيعة، والآيات الموجودة في خَلق النّاس، ويصدّقون أنّ كل خير إنّما هو آت من عند الله، وأنّ كل بلاء يُصيب العبد فإنّما أصابه ليكون فيه اختبار صبره وكُفرِه.

الظنّ واليقين في السُّنّة النبويّة

مثلما ذُكر حُسن الظنّ بالله واليقين به في كتاب الله، فقد ذُكر ذلك أيضاً في سُنّة رسوله المصطفى –صلى الله عليه وسلّم– في مواضع كثيرة، وممّا جاء في الظنّ واليقين في الحديث الشريف ما يأتي:

– ورد عن رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– قوله: (قال اللهُ جلّ وعلا: أنا عندَ ظنّ عبدي بي إنْ ظنّ خيراً وإنْ ظنّ شرّاً)، فالعبد المؤمن يظنّ بربّه خيراً ويتوكّل عليه، ثمّ يقوم بالأعمال المطلوبة منه ليقينه أن الله سيُثيبه عليها، ويبتعد عن كلّ ما حرّمه الله لظنّه أنّ الله سيُبدله ويعوّضه عنها في الجنّة؛ فاليقين ظاهرٌ عند العبد المؤمن في الإقبال على الآخرة بالعمل الصّالح، والبُعد عن كل ما حرّمه الله.

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (حُسنُ الظنّ من حُسن العبادة)، وفيه هذا الحديث يظهر أنّ حُسن الظنّ نَوعٌ من عبادةَ اللهَ، فكما يتقرّب المسلم من الله بالأعمال الصّالحة فإنّه يتقرّب منه كذلك بحُسن الظنّ به واليقين بأنّ كلّ ما يُصيبه إنّما هو من الله سبحانه وتعالى، وأنّه سيجزيه لقاء صبره، ويثيبه على ذلك إمّا في الجنّة أو الدّنيا.

– قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إنّ اللهَ يقولُ: أنا عند ظنّ عَبدي بي، وأنا مَعَهُ إذا دَعاني).

– عن جابر بن عبد الله قال: (سمعتُ رسولَ الله –صلّى اللهُ عليه وسلّمَ– قبل موته بثلاثة أيام يقول: (لَا يموتن أحدكم إلّا وهو يُحسنُ الظنّ بالله عزّ وجلّ).

سر بسم الله الرحمن الرحيم

تُعدّ كلمة البسملة اختصاراً لبسم الله الرّحمن الرّحيم، وذلك كقولنا حوقلة أو حمدلة، ويُراد بقولها طلب البركة والعون من الله سبحانه وتعالى وأسمائه قبل البدء بفعل أو قول معين، والباء في بدايتها للاستعانة والتبرُّك، وكلمة اسم التي تلحق بها هي مفردٌ مضاف يفيد العموم، وذلك كما في قول الله تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)، فنعمة لفظ مفرد مضاف للفظ الجلالة، وتفيد بذلك عموم نِعَم الله عزّ وجلّ، كما أنّ لفظ اسم في البسملة مفرد مضاف إلى لفظ الجلالة يُفيد عموم أسماء الله الحُسنى، أمّا لفظ الجلالة فهو أعظم اسم من أسماء الله الحُسنى، وهو خاصّ جاء بعد العموم ليشير إلى الأهميّة والشرف.

أمّا الرّحمن الرّحيم فهما من أسماء الله الحسنى، جاءا بدلاً من لفظ الجلالة فكانا تابعان له، وقيل: هما نعتٍ في هذا الموضع، والرّحمن اسم على وزن فَعْلان، وهو اسم لله تعالى يدل على أنه صاحب رحمة واسعة شاملة، تشمل الخلق جميعاً بما فيهم الكافر، فهو سبحانه يغدق رحمته وينشرها على عباده جميعاً، والرّحيم اسم على وزن فَعيل، يُراد به أنّ الله عزّ وجل صاحب الرحمة الخاصّة بالمؤمنين، قال تعالى: (وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)، وقيل في الفرق بين الرَحمنَ والرحيم: إنّ الرحمن هو الذي إذا سُئل أعطى، والرّحيم هو الذي إذا لم يُسأل يغضب، وفي قول رسول الله صلى الله عليه وسلّم: (إنّ لله مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحمُ بها عبادَه يومَ القيامة)، يُراد بالجزء الأول اسم الله الرحمن، وفي باقي الأجزاء التسعة والتسعين اسم الله الرحيم.

سِرّ بسم الله الرّحمن الرّحيم

لقول بسم الله الرحمن الرحيم فضائل عظيمة وأسرار جليلة، منها ما يأتي:

– افتتح الله سبحانه وتعالى أفضل كتاب بها؛ وهو القرآن الكريم.

– في قولها ستر للعورات عن نظر الجنّ؛ قال صلى الله عليه وسلم: (سَترُ ما بين أعين الجنّ وعوْرات بني آدمَ، إذا دخل أحدُهم الخَلاءَ أنْ يقول: بسَم الله).

– تجب البسملة على المَسلم إذا أراد الذّبح.

– يُسَنّ للمسلم أن يستفتح فيها كثيراً من العبادات، منها ما يأتي:

1 – الوضوء، والغُسل، والتيمّم.

2 – قراءة القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو في بداية مجالس الذّكر.

– يُسَنّ للمسلم أن يستفتح بها كثيراً من المباحات، منها ما يأتي:

1 – الأكل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (يا غلامُ، سمِّ اللهَ، وكُل بيمينِك، وكُلْ ممّا يليكَ).

2 – الجماع، فقد قال صلى الله عليه وسلم: (لو أنّ أحدَكم إذا أراد أن يأتيَ أهلَه، فقال: باسمِ اللهِ: اللهمّ جنِّبْنا الشيطانَ، وجَنِّبِ الشَيطانَ ما رزقتنا، فإنّهُ إن يُقدّرُ بينَهما ولدٌ في ذلك، لم يضُرّه شيطانٌ أبدا).

شُرعت في كلّ أحوال الإنسان من قيام، وقعود، وأكل، وقراءة قرآن، وغيره، وذلك ليظل الإنسان ذاكراً لله تعالى، طالباً للإخلاص له في كل أعماله، وليطلب بها التبرّك والتيمّن؛ ففيها للإنسان البركة والحفظ والرعاية.

أوجُه قراءة البسملة في القرآن الكريم

جعل العلماء لقراءة البسملة في القرآن الكريم خمسة أوجه؛ أجازوا قراءة أربعة منها ومنعوا واحدة، وفيما يأتي بيان الأوجه الجائزة لقراءتها:

– الوجه الأول: الفصل بينها وبين آخر السورة التي تسبقها، وبينها وبين أول السورة التي تليها.

– الوجه الثاني: الجمع بينها وبين آخر السورة التي تسبقها، وبينها وبين أول السورة التي تليها.

– الوجه الثالث: فصلها عن آخر السورة التي تسبقها، وجمعها بأول السورة التي تليها.

– الوجه الرابع: ترك قراءتها بالكليّة.

أما بالنسبة للوجه الممنوع في قراءة البسملة في القرآن الكريم فهو وجه جمعها بآخر السورة التي تسبقها، وفصلها عن أول السورة التي تليها، لما قال العلماء أنّه يمكن للمستمع حينها أن يظنّ أنّها نهاية السورة السابقة لها؛ وذلك يؤدي إلى تعطيل المعنى المراد من الإتيان بها، فمعناها متعلق بالبدء بالقراءة والشروع فيها، وليس ختمها والانتهاء منها.

الآراء في اعتبار البسملة من القرآن

اتّفق أئمّة القراءات وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم على إثبات قراءة البسملة في مطلع السُّوَر القرآنيّة جميعها عدا التوبة، حيث اتفقوا على أنّ سورة التوبة لا تستفتح بالبسملة، واتفقوا كذلك على أنّها آية في سورة النمل، وأنّها ثابتة خطاً في أوائل السور كلّها في المصحف عدا سورة التوبة أيضا، إلا أنّهم اختلفوا في غير ذلك؛ فذهب بعض العلماء إلى أنّ البسملة آية من كل سورة في القرآن الكريم، وذهب بعضهم إلى أنّها آية في سورة الفاتحة فقط، وذهب آخرون إلى القول بأنّها ليست آية مطلقاً، وقال بعضهم هي آية في بعض القراءات دون قراءات أخرى.

وأجمع العلماء على أنّ مثبت البسملة في القرآن الكريم ونافيها لا يكفر منهما أحد؛ لأنّ العلماء اختلفوا في ذلك، بخلاف ما لو أثبت إنسان حرفاً أو كلمة في القرآن الكريم لم يقل به أحد غيره، أو نفى حرفاً أجمع على ثبوته العلماء، فهذا يُكفر بالإجماع، وقد جعل بعضهم الاختلاف في اعتبار البسملة آية من القرآن أو عدم ذلك كاختلاف أئمّة القراءات في ثبوت بعض الحروف أو الكلمات في القرآن الكريم، فتجد بعض القراءات تثبت حروفاً أو كلمات تنفيها قراءات أخرى، ولا غرابة في ذلك.